الفصل الثالث:
علاقة الجغرافيا بالأدب والنقد الأدبي.

- الجغرافيا والأدب.
- الجغرافيا والنقد الأدبي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الجغرافيا والأدب

من تمعن في قراءة وفهم نظرية ابستمولوجيا الأدب (الأدب هو قوس قزح)، ومن تفطن لأصول تكون ونشوء الظاهرة الأدبية، ومن تتبع علاقة نشوء الظاهرة الأدبية بشتى ضروب العلوم والمعارف، يفهم بتجلي ووضوح كاملين، أنه ثمة علاقة بين الجغرافيا والأدب.

العلاقة بين الجغرافيا والأدب ليست مجرد علاقة عادية فحسب، بل علاقة قوية ومتينة جدًا. فاستنادًا إلى نظرية (الأدب هو قوس قزح)، الجغرافيا هي من أغنى الروافد التي تغذي الأدب، أي أنها أحد أبرز العلوم المشاركة في خلق وتكوين الظاهرة الأدبية، بأنواعها المختلفة، وتجلياتها المتنوعة.

الجغرافيا كما ذكرنا، هي من أكثر العلوم إسهامًا في أصول الأدب وتكوينه. هل لأحد أن يتخيل مكونات الأدب بلا مشاركات أو إسهامات جغرافية؟. وهل لأحد أن يتخيل الأدب بدون تلك النكهة الرائعة التي تكسبه إياها الجغرافيا؟.

الجغرافيا كمساهم فعال جدًا في عملية بناء النص الأدبي، لا يمكن اعتبارها كبقية المساهمين العاديين، فهي تمارس دور حيوي وحساس جدًا في بناء وتكوين الأدب، وبدون دورها هذا يصبح الصرح الأدبي آيلًا للسقوط، هذا إذا ما قامت له قائمة من حيث الأساس.

فالجغرافيا هي التي توفر للنص الأدبي عنصر (المكان)، والذي بدونه لا يكون هناك أي وجود حقيقي للنص. ولكم أن تتخيلوا هاهنا، هل من الممكن أن يكون هناك نص أدبي بلا مكان؟.

بالتأكيد لا.

فعدم وجود عنصر المكان في النص أو العمل الأدبي ينفي وجود ذلك النص أو العمل منطقيًا، وينسف ويلغي باقي عناصر العمل الأدبي، فأين ستدور أحداث العمل الأدبي في

ظل عدم وجود مكان ليكون بمثابة المسرح الذي يحتضن هذه الأحداث؟. وكيف سيكون هناك شخصيات في العمل الأدبي في ظل عدم وجود حيز مكاني لتمكث وتتنقل فيه هذه الشخصيات؟. وكيف ستترابط حلقات سلسلة الحبكة في ظل غياب المكان؟.

هذه كلها تساؤلات تدحض بمنطقية شديدة، إمكانية وجود نص أدبي أو عمل أدبي بدون تواجد حقيقي لعنصر المكان.

يمكننا القول أن العمل الأدبي في ظل غياب عنصر المكان، لا يكون مستوفيًا لكافة الشروط الضرورية والمنطقية، الواجب توافرها في العمل الأدبي الصحيح والمتكامل البنية.

عنصر المكان هو من المسائل التي تضفي مزيدًا من المصداقية والمنطقية على نصوص الأدب الواقعي، وحتى الأدب الخيالي هو الآخر ليس في معزل عن عنصر المكان، ففي نصوص الأدب الخيالي ثمة أماكن جغرافية حقيقية، أو حتى أماكن مصطنعة وتصورية.

العلاقة بين الأدب والجغرافيا، هي علاقة تأثير وتأثر متبادلين. فكما ذكرنا مرارًا وتكرارًا، تعد الجغرافيا من أبرز المساهمين في عملية إنشاء الظاهرة الأدبية، وفي تكوين النص الأدبي مهما كان نوعه أو جنسه. وكما ذكرنا أيضًا، إن الجغرافيا تتعهد على الدوام، بتزويد النص الأدبي بعنصر المكان، والذي بدونه لا يصير النص الأدبي نصًا، ولا حتى أدبيًا، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

هذا هو تأثير الجغرافيا على الأدب، ولكن في المقابل ما هو تأثير الأدب على الجغرافيا؟.

بلا شك هناك تأثير للأدب على الجغرافيا كعلم وممارسة، ويمكننا التطرق إلى ذلك التأثير من خلال وجهين اثنين:

الوجه الأول: في كثير من الأحيان يتفوق النص الأدبي على علم الجغرافيا في وصفه لمكان معين، فالحقيقة التي يقر بها الجميع وبمن فيهم الجغرافيين، هي أن الجغرافيا كعلم جاف وصارم، لا تعطي إحساسًا بالمكان كما يعطي الأدب، فالنص الأدبي يتفوق على الجغرافيا

من خلال أسلوبه الجمالي والإبداعي في السرد والوصف. باختصار يمكننا القول أن الجغرافيا ترسم الأماكن وتصفها بالخرائط والبيانات الجافة، أما الأدب أو النص الأدبي فهو وبأسلوب راقي ومبدع، يرسم الأماكن ويصفها بالكلمات، والتي بدورها تعطي إحساسًا بروح المكان وقيمته.

يمكننا القول بأن النصوص الأدبية، وخصوصًا تلك النصوص ذات البعد الجغرافي، قد تكون عاملًا مرغبًا ومحرضًا ومحفزًا على دراسة الجغرافيا، فالقارئ المتمتع في تذوق نص أدبي ذات بعد جغرافي، سيحمله فضوله غالبًا على البحث في كتب الجغرافيا، عن المعلومات الجغرافية والأماكن التي قرأ عنها في ذلك النص الأدبي.

وفي المقابل سيلجأ الدارس المتخصص في الجغرافيا إلى قراءة النصوص الأدبية عمومًا، والنصوص الأدبية ذات التركيز الجغرافي خصوصًا، كي يحاكي شيئًا من الأسلوب الذي تكتب به هذه النصوص، وكي يتعلم من خلالها اللغة الأدبية الراقية والثرية، والتي عادة ما يفتقدها الأكاديمي، وخصوصًا دارس العلوم الجافة، فهو يكون في أمس الحاجة إلى تلك اللغة، كي يطور من خلالها أسلوب الكتابة البراغماتية عنده، وكي يتعلم منها ما يعينه على كتابة دراساته ووثائقه البحثية.

ذات الأكاديمي والدارس للجغرافيا، سيلجأ إلى قراءة النصوص الأدبية عمومًا والنصوص ذات النزعة الجغرافية خصوصًا، كي يحس بروح المكان الذي يقرأ عنه في كتب الجغرافيا الجافة، وكي يروح عن نفسه، وكي يمتع نفسه بقراءة بعض اللغة الجمالية التي تخاطب العواطف، وتمتع النفس، وتحقق الإقناع بسلاسة وبساطة.

كذلك يمكن للتربويين وعلماء المناهج أن يستغلوا دور الأدب المعين على فهم الجغرافيا، من خلال تصميمهم لمناهج جغرافيا تحتوي على دروس تقدم المعلومات الجغرافية للطالب، عن طريق السرد القصصي السلس والبسيط. وبتلك المناهج أعني بالتأكيد مناهج طلاب المراحل الدراسية الأساسية والإعدادية.

مناهج بهذه الصيغة ستحمل الطلاب اليافعين أو الصغار على فهم مادة الجغرافيا، بشكل سهل ومبسط، يخلو من التهويل والتعقيد.

الوجه الثاني: يؤثر الأدب بشكل جلي وواضح على الجغرافيا، وتحديدًا جغرافية العمران. فكثير من الأحياء والميادين والشوارع في شتى أرجاء العالم، حملت أسماء أدباء رواد ومشاهير، مثل وليام شكسبير **William Shakespeare**، وفكتور هوغو **Victor Hugo**، ونجيب محفوظ، وغيرهم.

فهمنا من جميع ما سبق أن وجود الجغرافيا في النص الأدبي، هو من المسلمات التي لا اجتهاد مع حتمية وجودها. وبالتالي فإن كل عمل أدبي فيه شيء من الجغرافيا، ولكن هل هذا يعني أن كل عمل أدبي هو (جغرافي)؟.

بالتأكيد لا.. فصفة (العمل الأدبي الجغرافي) لا تطلق إلا على الأعمال الأدبية التي تكون تحت الهيمنة الكاملة للجغرافيا كفكرة، أعني بذلك أن الأفكار (الثيمات) الجغرافية يجب أن تكون مسيطرة على مجريات الأحداث في نص أدبي معين، كي يتسنى لنا أن نصنفه على أنه (عمل أدبي جغرافي).

وتجنبًا للبس وسوء الفهم، أرى أن نقسم مشاركة الجغرافيا في النص الأدبي، على النحو التالي:

١) مشاركة عادية: أي أن تشارك الجغرافيا في النص الأدبي مشاركة تقليدية وعفوية وبسيطة، أي تحت بند ما يسمى (عنصر المكان).

٢) مشاركة متقدمة: أن تتسيد الجغرافيا الجو العام للنص الأدبي، من خلال سيطرتها التامة على أفكاره وأحداثه. أو على الأقل أن تكون الجغرافيا هي أحد الأطراف الرئيسية، التي بدورها تتشارك السيطرة على أفكار النص وأحداثه ومفهومه العام.

المشاركة العادية للجغرافيا في تكوين الأدب، تظهر في سائر الأعمال الأدبية باختلاف أجناسها وأنواعها، وذلك بحكم تواجدها الطبيعي في عنصر (المكان)، والذي اتفقنا على أن وجود النص الأدبي لا يستقيم بدونه.

أما المشاركة المتقدمة للجغرافيا في تكوين الأدب، فلا تظهر غالبًا إلا في الأعمال الأدبية التي يمكننا أن نصنفها على أنها (أعمال أدبية جغرافية). وتلك الأعمال ذات النزعة الجغرافية الواضحة، نجدها في بعض الأجناس والأنواع الأدبية، كأدب الرحلات بدرجة أولى، وأدب المغامرات، والروبنسونات[1] Robinsonade، وأدب البحر، وغير ذلك، بدرجة ثانية.

مشاركة الجغرافيا في تشكيل النص الأدبي واكبت سائر نصوص الأدب، منذ النص الأول (جلجامش)، وحتى يومنا هذا. وبمشاركة الجغرافيا هاهنا أقصد مشاركتها العادية.

أما المشاركة المتقدمة للجغرافيا في تشكيل النص الأدبي، فقد بدأت تظهر في الأعمال الأدبية بشكل مركز ودقيق وأكثر وضوحًا، منذ بضعة قرون فحسب.

منذ كتابة النص الأدبي الأول في التاريخ (جلجامش)، وحتى القرن الرابع عشر للميلاد تقريبًا، كانت العلاقة بين الأدب والجغرافيا قوية فحسب. لكن العهد الجديد من العلاقات الأكثر قوة وصلابة بين الأدب والجغرافيا، كان تقريبًا في الفترة التي تلت القرن الرابع عشر للميلاد.

إذًا يمكننا القول أن القرن الخامس عشر، وتحديدًا النصف الثاني منه، كان بمثابة بداية عصر النهضة أو عصر العلاقات الذهبية بين كل من الأدب والجغرافيا. وهذا ما أتاح للجغرافيا فرصة

(1) مصطلح (الروبنسونات) ظهر لأول مرة، في مقالة لمحمد جهاد إسماعيل بعنوان (تأملات في عالم الروبنسونات)، نشرت المقالة بتاريخ 16 كانون الثاني 2012، في العدد 801 من صحيفة (البناء) اللبنانية. (الروبنسونات) هي ترجمة للمصطلح الإنجليزي Robinsonades، وسنتحدث عنها بالتفصيل، في قادم الفصول والصفحات.

المشاركة في تكوين النص الأدبي بمشاركات وإسهامات أكثر تقدمًا وتوغلًا من تلك التي اعتادت على المشاركة والمساهمة بها من قبل[1].

القرن الخامس عشر للميلاد مثل بداية حدوث طفرة كبيرة في العلاقة بين الجغرافيا والأدب. انطلاقًا من تلك النقطة، وشيئًا فشيئًا، بدأ يتطور تواجد الجغرافيا ويتعزز نفوذها وتكثر إسهاماتها في الأدب عمومًا، وذلك بفضل كثير من العوامل والاعتبارات، أبرزها ما يلي:

١) الكشوف الجغرافية:

لغاية القرن الرابع عشر تقريبًا، لم يكن العالم متألفًا سوى من ثلاث قارات (آسيا، أفريقيا، أوروبا)، أو ما نسميه اليوم بالعالم القديم. لكن الجغرافيا كانت على موعد في نهايات القرن الخامس عشر للميلاد مع بداية ثورتها التاريخية والغير مسبوقة، والتي تمثلت في الكشوف الجغرافية العظمى، والتي بفضلها عرفنا الأمريكيتين ومن ثم أستراليا، فيما نسميه أحيانًا بالعالم الحديث، أو العالم الجديد.

هذه الكشوف الجغرافية العظمى لم تأت من فراغ، بل جاءت بجهود بحارة ومستكشفين شجعان، خاطروا بأنفسهم، حملوا على عاتقهم عناء السفر الطويل، مضوا إلى المجهول بغموضه المخيف، مخرت سفنهم عباب المحيطات، ليعثروا لنا على النصف الآخر لعالمنا المعاصر.

وسائل التكنولوجيا المذهلة التي بين أيدينا الآن، لم تكن معروفه لدى هؤلاء البحارة والمستكشفين، والذين اعتمدوا بدورهم على الوسائل البدائية البحتة. لو رأينا السفن والأدوات التي استخدمها هؤلاء المستكشفين في استكشافاتهم لأثارت فينا الضحك والسخرية، لكنهم

(1) في فترة ما بعد القرن الخامس عشر، بدأت تظهر الرواية كشكل جديد من أشكال الأدب، وقد ساعدت الرواية بمزاياها النثرية والسردية التفصيلية، على زيادة العلاقة والارتباط بين الجغرافيا والأدب. فقد كانت الرواية بمثابة بابًا واسعًا وكبيرًا، دخلت من خلاله الجغرافيا وبقوة إلى عالم الأدب.

في النهاية حققوا الفتح الجغرافي الأعظم في تاريخ البشرية، فبمجرد أن وطأت أقدام اولئك المستكشفين يابسة العالم الجديد، بدأت حركة التغيير التي قلبت العالم رأسًا على عقب، فيما بعد.

رواد الاستكشاف الجغرافي مثل كريستوفر كولومبوس **Christopher Columbus** ، وأمريكو فسبوتشي **Amerigo Vespucci**، وفرديناند ماجلان **Ferdinand Magellan**، وجيمس كوك **James Cook**، وغيرهم. مضوا يبحثوا لنا في الفضاءات البعيدة عن عوالم جديدة، كل منهم من وراء جهده هذا كان يبتغي المجد الشخصي له، وكذلك المجد العام لأمته وشعبه، وربما من بعد ذلك كان يبتغي الصالح العام للبشرية جمعاء.

ولكن المتأمل فيما وصل إليه هؤلاء المستكشفين، أحيانًا قد تختلط عليه المواقف والآراء، ففي بعض المسائل الإيجابية، كوصول الطماطم إلينا بفضل تلك الكشوف، يشعر المرء بمدى روعة ذلك الإنجاز العظيم والذي قام به كولومبوس ورفاقه المستكشفين. ولكن في بعض المواقف الأخرى قد ينقم المرء على فعلة كولومبوس ورفاقه، خصوصًا عندما يتذكر أن (أمريكا القبيحة) لم تكن لتوجد لولا تلك الكشوف، وأن كتاب (نهاية التاريخ) لفرانسيس فوكوياما **Francis Fukuyama** لم يكن ليصل إلينا هو الآخر، لولا فعلة كولومبوس ورفاقه الشنعاء!!.

أحدثت هذه الكشوف الجغرافية أثرًا عملاقًا على أحوال الكون والبشرية جمعاء. وأكثر الأطراف التي تأثرت بهذه الكشوف كانت المجتمعات التي ينتمي إليها المستكشفون الأوائل، ألا وهي المجتمعات الأوروبية. فقد هاجرت أعداد كبيرة من سكان هذه المجتمعات لتستوطن القارات الجديدة التي تم اكتشافها وراء البحار. تيارات الهجرة تلك، تسببت في نشوء مجتمعات أوروبية جديدة خارج حدود أوروبا (تتكون من المهاجرين الأوروبيين)، وفي الاتجاه المقابل تسببت تلك التيارات في خفض الكثافة السكانية داخل المجتمعات الأوروبية الأصلية. وهذا ما انعكس بالإيجاب على الحالة الاقتصادية للمجتمعات الأوروبية سواء داخل أوروبا أو

خارجها. أما الوفرة الهائلة للثروات الطبيعية والمواد الخام في القارات الجديدة، فقد أحدثت فيما بعد طفرة اقتصادية هائلة في اقتصادات الدول الأوروبية المختلفة، وخصوصًا مع حلول إرهاصات الثورة الصناعية وتقدم الإنتاج.

أحدثت الكشوف الجغرافية نهضة علمية رهيبة في علم الجغرافيا، فتطور ذلك العلم كثيرًا وتوسعت مداركه، بفضل الكشوف ونتائجها وتبعاتها، وهذا بلا شك زاد من الحضور الجغرافي في المشهد الأدبي. فضلًا عن الجغرافيا، كانت تلك الكشوف سببًا في تطور الكثير من العلوم، كالجيولوجيا، والإثنولوجيا، والأحياء، وعلم النبات، وعلم الآثار، وعلمي الاجتماع والاقتصاد.

الأوروبيين الذين هاجروا إلى قارات العالم الجديد، اختلطوا بالسكان الأصليين لهذه القارات. وحدث نوع من التصادم الحضاري والإثني منذ البداية بين الطرفين، فالسكان الأصليين نظروا للمهاجرين الأوروبيين على أنهم مستعمرون جاءوا من وراء البحار كي يغتصبوا أرضهم، أما الأوروبيين فنظروا إلى السكان الأصليين بعين الاحتقار، على أنهم رعاع، حفاه، عراه، وثنيين، متخلفين الهيئة والطباع.

السلوك العدواني الإمبريالي للرجل الأوروبي الأبيض، وفي مقابله السلوك الفدائي الإستبسالي للسكان الأصليين البدائيين، أوقعا كلًا من الطرفين في كثير من النزاعات والصدامات الدموية، هذا لا يعني أن ميزان القوة كان متكافئًا عند الطرفين، بالطبع لا والدليل على ذلك هو أن السكان الأصليين تكبدوا أغلب الخسائر، وتعرضوا لحملات إبادة جماعية شرسة وتطهير عرقي رهيب، على يد الأوروبي الأبيض المهاجر.

لكن بالرغم من الخلافات العميقة بين الجانبين، كان هناك نوع من التأثير والتأثر الثقافي يحدث بين كلا الطرفين. حيث ما لبثت ثقافة الشعوب الأصلية أن تأثرت بثقافة المستعمر الأوروبي الأبيض (وإن كان ذلك يتم في كثير من الأحيان قسرًا، بسبب محاربة المهاجرين الأوروبيين لثقافة السكان الأصليين، ومحاولاتهم المستمرة لطمس معالم هكذا ثقافة). وفي

المقابل تأثر المهاجرين الأوروبيين كثيرًا بثقافة اولئك الوثنيين البدائيين (وهذا ما يؤكد أن كثير من السكان الأصليين كانوا أصحاب حضارات عظيمة وموروث ثقافي غزير، بعكس ما يدعي الأوروبيين أنهم كانوا شعوب متخلفة غبية، حيوانية السمات والطباع).

لم يكن الباعث وراء الكشوف الجغرافية هو تحقيق مجد معنوي لشخص ما أو أمة ما فحسب، بل كان السعي وراء هكذا كشوف هو جزء من استراتيجيات السياسة الخارجية للعديد من الدول أو الممالك الأوروبية آنذاك. ففي حقيقة الأمر كانت العديد من الدول الأوروبية تنشد تلك الكشوف، من أجل إيجاد حلول حقيقية للأزمات الاقتصادية الخانقة التي تمر بها هذه الدول، ومن أجل تعزيز مكانتها الجيوسياسية في ظل سيطرة وقوة إمبراطوريات الشرق، في الدولة العثمانية، وروسيا، وشرق آسيا، وسيطرة تلك الإمبراطوريات على معظم خطوط وطرق التجارة الدولية، سواء البرية منها أو البحرية. والكنيسة الأوروبية هي الأخرى كانت لها رغبة قوية في تلك الكشوف، من أجل الكرازة بالإنجيل، والتبشير بالدعوة المسيحية في أوساط السكان الوثنيين اللادينيين الذين يقطنون القارات الجديدة، وذلك بالتأكيد من أجل توسيع رقعة العالم المسيحي.

بما أن تلك الكشوف الجغرافية أحدثت طفرة هائلة من التغيير في أوساط المجتمعات الأوروبية، وبما أن الأدب هو مرآة المجتمعات والشعوب، نجد الكثيرين من الأدباء قد تأثروا بتلك الكشوف واستلهموا أفكار كتاباتهم منها، ونجد قطع أدبية كثيرة تنتمي لآداب لغات مختلفة، كتبت في حقبة الكشوف والقرون القليلة التي تلتها، لتغطي وتصف وتناقش تلك الفترة الهامة من تاريخ البشرية وهذا الكوكب الأزرق.

٢) تقدم التبادل التجاري:

في فترة الكشوف الجغرافية، وبعدها بعدة عقود، بدأت تحدث هناك طفرة واضحة في عالم النقل البحري والملاحة. طرأ تطور كبير على صناعة بناء السفن، فصارت السفن أسرع من ذي قبل، وأكثر تجهيزًا وتحصينًا، وبالتالي صارت أقل تأثرًا بتهديدات البحار وانفعالات الطبيعة.

تطور بناء السفن واكبه تطور في نوعية الطرق الملاحية التي تسلكها هذه السفن، بحيث راح المستكشفين يستكشفون طرقًا ملاحية أقصر وأأمن وأفضل من سابقاتها. فأصبحت السفينة تنجز رحلتها من مكان لآخر في وقت أقل وكذلك جهد أقل من ذي قبل. وهذا ما ساعد بدوره على تشجيع وتنشيط عملية التبادل التجاري.

ففي خطوة لاحقة، تم التحايل على بعض النقاط الضعيفة والإستراتيجية في يابسة بعض القارات، من أجل نقرها وخلق ممرات بحرية وملاحية تختصر المسافات وتقلل من عناء السفر، على السفن وعلى من تحملهم على ظهورها تلك السفن.

فتم ربط البحرين الأبيض المتوسط والأحمر من خلال حفر قناة السويس، والتي قدمت للبشرية طريقًا ملاحيًا مذهلًا ومختصرًا يصل الشرق بالغرب، ليحل بدلًا من ذلك الطريق الشاق الذي كان يلتف حول رأس الرجاء الصالح. وكذلك تم ربط المحيط الأطلسي والبحر الكاريبي من جهة بالمحيط الهادئ من الجهة الأخرى، وذلك من خلال حفر قناة بنما، والتي اختصرت المسافات هي الأخرى، بشكل مدهش ومثير للإعجاب.

بالتأكيد كان لحفر قناتي السويس وبنما وغيرهما من القنوات المائية في العالم، أثرًا كبيرًا على تطور وتنامي التبادل التجاري بين الأمم.

وجاءت الحركة الاستعمارية كذلك لتنمي التبادل التجاري بين أرجاء العالم، وذلك من خلال دورة تبادل السلع والبضائع والموارد الطبيعية والمواد الخام بين المستعمرات والدول التي تقوم على استعمارها.

وعند الحديث عن أن الاستعمار قد ساعد على تنشيط التبادل التجاري بين كافة أرجاء العالم، علينا أن نعترف بأن الكشوف الجغرافية هي التي فتحت شهية الدول الأوروبية على الاستعمار. فلولا النتائج التي جاءت بها الكشوف الجغرافية لاقتصر الاستعمار الأوروبي على أفريقيا وبعض أرجاء آسيا فحسب، أما استعمار الدول الأوروبية لكامل الأمريكيتين وأستراليا، فما كان ليتم لولا وجود الكشوف الجغرافية وما تمخض عنها من نتائج أبهرت العالم.

لذلك يمكننا القول أن كلًا من الكشوف الجغرافية والحركة الاستعمارية كانا عاملين هامين، ساهما في تنشيط التبادل التجاري بين أرجاء العالم أجمع، وقاراته المختلفة، قديمها وجديدها.

حتى بعد استقلال الدول المستعمرة، فيما يعرف بالحقبة ما بعد الكولونيالية Postcolonialism [1] ،استمر الارتباط التجاري بين الدول المستقلة والمتعافية حديثًا من الاستعمار(دول العالم الثالث)، والدول الاستعمارية (الدول الصناعية المتقدمة).

التبادل التجاري بين مختلف الدول والشعوب، مثل مفهومًا أعمق من مجرد تبادل السلع والبضائع والمواد الخام. في الحقيقة ذلك التبادل التجاري مثل أو شكل تبادلًا ثقافيًا بين العديد من الأمم والشعوب، وذلك بحكم الاحتكاك والتخالط الذي حدث بين الشعوب المختلفة بسبب النشاط التجاري بينها. فأفراد (س) من الشعوب أصبحوا يعرفوا الكثير عن عادات واعتقادات وثقافات (ص) من الشعوب، وأفراد (د) من الشعوب أصبحوا أكثر انفتاحًا واطلاعًا على ثقافة (ه) من الشعوب، وهكذا.

(1) هي الحقبة التي أعقبت انتهاء الاستعمار الأوروبي، للكثير من أرجاء العالم.

وبالتالي هذا ما أثرى الثقافة الجغرافية عند جميع من تأثروا بعملية التبادل التجاري. فانعكست هذه الظاهرة على كتابة الأدب وأسلوب كتابته وعلى محتواه بالطبع، فصارت النصوص الأدبية تكتب بنزعة جغرافية أكثر تركيزًا وكثافة عن ذي قبل، وذلك بسبب تأثر كتابة الأدب، وكتاب الأدب بظاهرة التبادل الثقافي عالمية الانتشار تلك[1].

ولا يمكننا أيضًا في بعض المواضع التاريخية أن ننكر الدور المباشر للتجار، سواء البريين منهم أو البحريين في تكثيف النزعة الجغرافية داخل نصوص الأدب، فجميع هؤلاء التجار هم بطبيعتهم رحالة ومستكشفين، فترحالهم واستكشافهم هذا تأثرت به الأعمال الأدبية، سواء أكانوا يكتبونها بأنفسهم، أو ينقلونها ويكتبونها عنهم الغير.

٣) الحركة الاستعمارية:

تحركت العديد من الدول الأوروبية وتسابقت وتنافست فيما بينها، على استعمار باقي أرجاء المعمورة. بالفعل أحكمت الدول الأوروبية الاستعمارية قبضتها على سائر البقعة الجغرافية لأمريكا اللاتينية، والكاريبي، وأفريقيا، والكثير من يابسة آسيا أيضًا.

تلك الدول الأوروبية الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا، وفرنسا، وأسبانيا، وهولندا، والبرتغال أرادت أن تقوي من نفوذها السياسي والجيوسياسي، وأرادت أن تؤمن لنفسها خطوط الملاحة البحرية المناسبة والآمنة، وأرادت في أهم الاعتبارات على الإطلاق أن تنعش حالتها الاقتصادية وتقويها جيدًا، وذلك من خلال تصديرها لأزماتها الاقتصادية إلى الخارج، وفي المقابل استيراد الحلول من هناك.

ببساطة يمكننا القول أن هذه الدول الاستعمارية أرادت أن توجد لها مستعمرات في الخارج، كي تجلب من خلالها الموارد الطبيعية والمواد الخام وتنقلها إلى أوروبا، وفي المقابل تجعل

(1) التبادل التجاري يفضي إلى التبادل الثقافي، فتبادل التجارة يحقق تبادل الثقافة.

obeikandi.com

من تلك المستعمرات أسواقًا استهلاكية شرهة، تدفع فيها بمنتجاتها، وتحقق من خلالها أفضل العوائد الاقتصادية والأرباح.

بالإضافة إلى الكرازة بالإنجيل والتبشير بالدعوة المسيحية، واضطهاد الشعوب واستباحة مقدراتها وسلبها حقوقها، ارتكز الفكر الكولونيالي الامبريالي على تفتيت معالم الهوية الثقافية لكل المجتمعات التي جرى استعمارها. وذلك لإدراك المفكرين الكولونياليين والامبرياليين أن أفضل وسيلة لإرضاخ إرادة الشعوب والسيطرة عليها واستعبادها، تتمثل في محو هويتها الثقافية وتبديد وتشويه معالم تلك الهوية.

وهذا ما حدث بالضبط مع الهنود الحمر **Native Americans** في الأمريكيتين، والقبائل الزنجية في القارة الأفريقية، والأبوريجين**Aborigines** في أستراليا، وغيرهم الكثيرين.

الحقبة الاستعمارية أو الكولونيالية كانت حاضنة للكثير من الإبداعات والكتابات الأدبية، والتي بالتأكيد ظهر فيها التركيز الكبير للمحتوى الجغرافي. تلك الحقبة الهامة من تاريخ البشرية كانت باعثًا ومحفزًا للكثيرين من الأدباء على الكتابة والإبداع.

مجمل الأعمال الأدبية التي كتبت في موضوع الاستعمار، وجاءت في الحقبة الاستعمارية أو الكولونيالية، يمكن تقسيمها إلى نوعين اثنين، هما: الأدب الاستعماري، والأدب المقاوم.

الأدب الاستعماري: هو الأدب الذي كتبه أدباء الدول الاستعمارية بشأن مستعمرات بلدانهم. وأحيانًا ما تحتوي القطعة الأدبية من ذلك النوع من الأدب، على استكشافات الكاتب و ملاحظاته لمستعمرة ما تتبع بلاده، من خلال وصفه لها، كحديثه عن مناخ تلك المستعمرة وجغرافيتها، وحديثه عن شعب تلك المستعمرة، وعادات ذلك الشعب، ومعتقداته، ومناسباته، وتراثه، وطريقته في الحياة، وأنواع طعامه ووجباته، وهكذا.

وفي أحيان أخرى يكون التطرق إلى المستعمرات أمرًا عامًا بدون تخصيص، أي بدون تناول مكان بعينه أو وصف مكان بعينه، كالتطرق لقضية الاستعمار أو الكولونيالية بشكل عام (من ناحية فكرية أكثر منها جغرافية أو اجتماعية تفصيلية).

الأدب المقاوم: هو الأدب الذي يكتبه أبناء الشعوب المستباحة والمستعمرة، أو من يتضامن معهم من أبناء الشعوب والأمم الأخرى. وفي الأعمال الأدبية الخاصة بذلك النوع من الأدب، يتعرض الكاتب لوحشية المستعمر وبطشه وظلمه، فبعمله الأدبي هذا يستثير الكاتب همم أبناء شعبه، ويحضهم على الكفاح والنضال من أجل دحر المستعمر ونيل الاستقلال وتقرير المصير. ويعد الأدب المقاوم بحد ذاته نوعًا من أنواع المقاومة السلمية أو الغير عنيفة، وهو بذلك لا يقل شأنًا عن أيًا من الأنواع الأخرى للمقاومة. وقد أثبت فعاليته الكبيرة في الكثير من تجارب التحرر، للعديد من الدول التي رزحت تحت نير الاستعمار.

كلا النوعين من الأدب عززا مبدأ التطرق إلى الجغرافيا في عملية صياغة وتكوين العمل الأدبي، فموضوع الكولونيالية أو الاستعمار هو موضوع جغرافي صرف. وذلك كونه يدور في المقام الأول حول المستعمرات، والتي بدورها هي عبارة عن وحدات سياسية أي (دول)، وفي كثير من الأعمال الأدبية الخاصة بهذين النوعين من الأدب، يجري الحديث عن المستعمرات بتفاصيلها الجغرافية، أي كونها حبيسة أم ساحلية، حدودها سواء طبيعية أم سياسية، تضاريسها، ديمغرافيتها، ثرواتها، مناخها، وهكذا.

٤) الحروب العالمية:

إذا ما أخذنا هذا المصطلح على عواهنه، فإنه سيكون قد جاء وصفًا شاملًا للكثير من الحروب التي عصفت وفتكت بالبشرية والعالم أجمع. ولكنني من وراء هذا المصطلح قصدت التحدث عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨)، والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥). لما كان لهذين الحربين من أثر كبير جدًا على مسيرة حياة البشر، وصناعة التاريخ.

هذين الحربين وقعا بين دول عظمى وقوية، بداية من دول أوروبا الاستعمارية وغير الاستعمارية وأمريكا، وانتهاء بإمبراطوريات الشرق، سواء العثمانية، أو السوفيتية، أو حتى اليابانية.

هذين الحربين فتكا بعشرات الملايين من البشر، وتسببا بدمار هائل للطبيعة لم يسبق له مثيل، منذ حادثة ذلك النيزك الضخم الذي ارتطم بالأرض قبل ملايين السنين، وبأثره انقرضت سائر الديناصورات.

مما لا شك فيه أن هذين الحربين مثلا امتهانًا فاضحًا لآدمية البشر، فقد جاءت وقائع هذين الحربين وتحديدًا كارثة هيروشيما وناجازاكي Hiroshima and Nagasaki، لتثبت أن الإنسان يتفوق على الشيطان في الكثير من المناسبات، وأن خطر الإنسان على أخيه الإنسان هو أشد وأكبر بكثير من خطر الشيطان على الإنسان، لأن ممارسات الشيطان مهما بلغت عتوًا وقوة لا تتجاوز كونها نزغات، فهي لا تصل بأي حال من الأحوال إلى حد إمطار المدن الآمنة بقاذفات القنابل، وإهلاك الحرث والنسل بسلاح الذرة، ونشر الذعر والإنفجارات!!.

ونتيجة لهذين الحربين الذين أبرقت وارتعدت لهما سماء البشرية والتاريخ. خرج الكثيرون من الأدباء ينقلون مشاعرهم المختلفة إلى الأوراق، فراحوا يكتبون أعمالًا أدبية بشأن الحربين وما تمخض عنهما من نتائج كارثية، قصمت ظهر البشرية بأسرها.

بالإضافة للأدباء الذين خصصوا أعمالًا أدبية كاملة للحديث عن الحربين، هناك عدد آخر من الأدباء تركوا في أعمالهم الأدبية إيحاءات بشأن الحربين ولم يتحدثوا عنهما بشكل رئيسي أو مباشر. لكننا في المحصلة النهائية، نجد ظاهرة الحربين العالميين قد ظهرت بقدر كبير في الأعمال الأدبية التي كتبت في حقبتي الحربين، وما بعد هاتين الحقبتين، أي إلى يومنا هذا.

وبفضل التنوع والتشابك الجغرافي المعقد، لجبهات التحارب والنزاع الممتدة على نطاق شاسع، وانتقالها باستمرار من مكان لآخر. وبفضل غنى يوميات الحرب بالمعلومات والأخبار

السياسية والعسكرية ذات المغزى المكاني والجغرافي. كان من الطبيعي آنذاك أن تكون الكتابات الأدبية التي تكتب في ذلك الوقت غنية بالمعلومات الجغرافية والحس الجغرافي. لأن واقع العالم بأسره آنذاك، كان مشغولًا بمصطلحات الجغرافيا والمساحات والمسافات والاتجاهات والأماكن.

٥) التشظي الجغرافي:

المقصود بالتشظي الجغرافي هو انشطار الوحدات السياسية الكبرى، وتفرقها إلى وحدات سياسية أصغر حجمًا. والمقصود بذلك هو تكاثر الدول والكيانات السياسية المستقلة، بشكل مضطرد ومستمر. هذه الظاهرة الجغرافية السياسية ظهرت بشكل رئيسي كأحد نتائج انتهاء الحقبة الكولونيالية، أي أنها أحد سمات حقبة ما بعد الكولونيالية.

ولا يخفى على أحد كذلك، أن الدول الاستعمارية كانت قد رسمت الحدود الخاصة بمستعمراتها وحددت الكيانات الجغرافية لتلك المستعمرات، وفقًا لاتفاقيات وتفاهمات دولية وقعتها الدول الاستعمارية مع بعضها البعض في كثير من المناسبات. وبعد جلاء الاستعمار بقيت ترسيمات الكيانات الجغرافية والحدود التي حددها الاستعمار كما هي، لتحكم واقع الدول المستقلة فيما بعد.

ولا يخفى على أحد كذلك، أن الدول الاستعمارية كانت قد اتبعت أسلوب التفتيت والتفكيك عند قيامها بترسيم حدود مستعمراتها، والتي استقلت فيما بعد. ففي مكان كالمنطقة الممتدة على طول الساحل الغربي لقارة أفريقيا، وتحديدًا الساحل المحصور بين موريتانيا شمالًا ونيجيريا جنوبًا، نجد كلًا من الاستعمار الفرنسي والبريطاني والبرتغالي قد خلفوا ورائهم أكثر من عشر دول مستقلة، في ذلك النطاق الساحلي المحدود (مقارنة بعدد الدول)[1].

(1) فضلاً عن الساحل الغربي لأفريقيا، هناك مناطق أخرى من العالم تمتاز بظاهرة التشظي الجغرافي، مثل منطقتي أمريكا الوسطى والكاريبي.

وفي المقابل اتبع الاستعمار أسلوب يختلف تمامًا عن الأسلوب السابق، ولا يقل عنه إسهامًا في خلق ظاهرة التشظي الجغرافي، ألا وهو خلق كيانات سياسية (دول) كبرى، تتكون من مساحات جغرافية شاسعة، ولكنها تنشأ وتقوم على مجموعة من التناقضات والتنافرات، كالتناقضات والتنافرات العرقية و المذهبية.

مثل هذه الكيانات تعبر فترة الاستقلال بسلام، لكنها تظل كالقنبلة الغير موقوتة، مهيأة للانفجار في أي وقت، وفي النهاية يكون مصيرها الحتمي هو التشظي الجغرافي والانقسام إلى كيانات سياسية أصغر حجمًا.

ولعل الناظر إلى حال جمهورية السودان بعد استقلالها عن الاستعمار البريطاني أو الحكم الثنائي[٢]، يلاحظ فيها النموذج الأمثل، لذلك النمط من الكيانات السياسية المنتفخة والغير متجانسة القوام. فدولة مثل السودان الحديث تم وضعها في ذلك الإطار الجغرافي من قبل الاستعمار، كي تضم تكوينات ديمغرافية متناقضة ومتنافرة، سواء عرقيًا، أو مذهبيًا، أو غير ذلك.

هذا البناء المتناقض والغير متوازن لجمهورية السودان الحديثة، جعلها تعيش طوال العقود الماضية حالة من النزاع والصراع الدموي والعنيف، بين الحكومة المركزية في الشمال والانفصاليون في الجنوب.

فكانت النتيجة المتوقعة لذلك النزاع والصراع هي انشطار جمهورية السودان في العام ٢٠١١ إلى (سودانين اثنين)، دولة السودان التقليدية (عاصمتها الخرطوم)، ودولة جنوب السودان (عاصمتها جوبا).

(2) الحكم الثنائي، هو حكم إنجليزي مصري مشترك، خضع له السودان قبل استقلاله.

obeikandl.com

لم تنته ظاهرة التشظي الجغرافي بانتهاء الاستعمار، كما لا يمكننا من حيث الأساس أن نعزو كل عمليات التشظي الجغرافي التي تحصل إلى أنها من نتائج الاستعمار. فهناك عمليات تشظي قد تحدث نتيجة انهيار وتفكك إمبراطوريات ودول كبرى، أيًا كان سبب هذا التفكك والانهيار.

ولعل خير مثال على ذلك، هو ما حصل مطلع تسعينيات القرن الماضي، عندما انفرط عقد الاتحاد السوفيتي وانشطر إلى نحو خمسة عشر جمهورية جديدة مستقلة. وكذلك انهيار يوغسلافيا وتشظيها إلى ما يزيد عن خمسة دول جديدة ومستقلة.

في نظرة إلى مستقبل العالم السياسي، سنجد أن ظاهرة التشظي الجغرافي لن يأفل نجمها ولن يخفت مستقبلًا، وذلك في ظل سماعنا يوميًا عبر نشرات الأخبار، عن نوايا انفصالية عند هذا الطرف أو ذاك، وعن تشكل كيان سياسي مستقل هنا أو هناك، وعن اختلاف الدول المركزية في العالم حول مسألة دعم استقلال هذا الإقليم أو ذاك. فكل فترة من الزمن تظهر على خارطة العالم، دولة مستقلة جديدة.

الدول المستقلة في العالم أصبحت في ازدياد مستمر منذ عقود. يبدو أن ظاهرة التشظي الجغرافي قد نجحت في تفكيك العالم وفي تفتيت خارطته الجغرافية السياسية إلى قطع صغيرة متناثرة. تعداد دول العالم المستقلة حاليًا والذي يقارب المائتين دولة، ساهم وبلا شك في تنمية أهمية وانتشار الجغرافيا كعلم أولًا، ثم انعكس ذلك على الأدب بالتأكيد، حيث ساهمت تلك الظاهرة (التشظي الجغرافي) والنتائج التي تمخضت عنها في زيادة المساهمة الجغرافية والنفوذ الجغرافي في الكتابات الأدبية، والمشهد الأدبي عمومًا.

٦) الانفتاح الثقافي:

لعل الظاهرة الأبرز التي تعبر عن هذا الانفتاح الثقافي هي ظاهرة العولمة **Globalization**. كيف لا والعولمة قد طالت شتى مناحي الحياة بما فيها الثقافة. إذا ما أردنا أن نقسم العولمة إلى

تقسيمات وتصنيفات متخصصة، فبإمكاننا بكل تأكيد أن نتحدث عن وجود عولمة ثقافية. أما إن أردنا أن نناقش ظاهرة العولمة عمومًا وبدون خوض في التفاصيل، فإن لظاهرة العولمة الكثير من النتائج والآثار الثقافية التي تلقي بها على العالم أجمع، وهنا يأتي الانفتاح الثقافي على رأس هذه النتائج والآثار.

العولمة كظاهرة كونية وعالمية جاءت نتيجة التقدم العلمي والمعرفي الهائل في جميع المجالات. العولمة ليست مصطلحًا نظريًا معنويًا مجردًا كالبنيوية أو التفكيكية أو الشكلانية، بل هي مصطلح عملي تطبيقي آثاره ملموسة. فبإمكان جميع سكان كوكبنا أن يلمسوا وجود العولمة واقعًا حقيقيًا، من خلال تفاصيل ومجريات حياتهم اليومية.

العولمة أو الشوملة كما يسميها البعض، هي اختصار المسافات والفضاءات الجغرافية، وجعل العالم أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة. التلفاز مثلًا هو أحد علامات وأدوات العولمة. المشاهد للتلفاز لا يبتعد عنه عادة سوى ثلاثة أو أربعة أمتار، في حين يقوم التلفاز بجلب البلدان والقارات النائية التي تبعد عن المشاهد آلاف الكيلومترات، ليقدمها له ويدنيها منه فتصير شاخصة أمامه، فقط على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار، وهي كما ذكرنا، المسافة الفاصلة بين جهاز التلفاز والمشاهد.

لولا التقدم العلمي الرهيب في شتى المجالات والميادين، ولولا نضوج الفكر الإنساني، وترسخ معالم ومظاهر الحداثة، لما ظهرت العولمة. العولمة بحد ذاتها هي ثورة بشرية معجزة، جاءت بفعل الثورات الأخرى المختلفة، كثورة الكشوف الجغرافية، والثورة العلمية، والثورة الصناعية، وثورة الاختراعات والابتكارات، والثورة ضد العنصرية، وثورة التجارة والنقل، والثورة الرقمية، وثورة التكنولوجيا والمعلومات، و..الخ من ثورات.

كما تحدثنا عن مثال التلفاز، العولمة جعلت المستخدم User يملك الكوكب بأكمله، وبين يديه. فمستخدم الهاتف النقال الجالس في بيته في فرنسا، يستطيع بسهولة وبشكل فوري أن

يستمع إلى صوت العطس وهو يخرج من فم شخص آخر يتحدث إليه من اليابان!!.

وكذلك مستخدم الانترنت الجالس في بيته في منهاتن، يستطيع محادثة صديقه ما وراء البحار بالصوت والكتابة، بل ويستطيع بشكل فوري ومباشر أن يراه عبر الكاميرا وهو يحتسي القهوة في بيته في بانكوك!!.

بفعل العولمة انتهى الانغلاق أو الانطواء الثقافي عند جماعة أو مجتمع ما. فبفعل العولمة اختلطت الثقافات وامتزجت ببعضها البعض، ففقدت نقاوتها الأولى. فصارت الثقافة الأصلية لشعب ما تنحسر وتتراجع، في ظل سيادة ثقافات أخرى دخيلة.

الثقافات الدخيلة قد تأتي أحيانًا على شعب أو مجتمع ما بدون قصد وبحسن نية، وأحيانًا أخرى قد تأتي وفقًا لنية مبيتة وتوجيه وتخطيط مسبق، وهذا ما يسميه البعض (الغزو الثقافي)، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك النوع من الغزو المستتر، هو ما تمارسه الثقافة الأمريكية الحديثة، وتحديدًا ما تبثه للعالم من خلال هوليوود **Hollywood**.

الانفتاح الثقافي والعولمة جعلا من كل شأن داخلي وخاص، شأنًا عالميًا وكونيًا. فعلًا في عهد الانفتاح الثقافي والعولمة انقرض مفهوم (الخصوصية) بكل أشكاله وتجلياته، وصار كل شيء مفضوحًا ومعلومًا لدى العالم أجمع، وفي غضون لحظات.

كنتيجة للانفتاح الثقافي والعولمة، ازداد الوعي الجغرافي عند سكان العالم أجمع، وصارت المعرفة الجغرافية عند شخص ما أوسع بكثير عما قبل. فصار الإنسان عبر الشبكة العنكبوتية (الانترنت) يقرأ أعمالًا أدبية تنتمي لآداب دول وحضارات شتى. وكذلك صار الكاتب للعمل الأدبي يتطرق في نصه إلى أماكن ومعلومات جغرافية تنتمي إلى دول وقارات شتى. فعلى ما يبدو أن العولمة الثقافية فتحت شهية الكتاب على التطرق في كتاباتهم إلى فضاءات وأماكن دولية وخارجية وبعيدة، وأخرجتهم عن نطاق التقوقع داخل صوامع الجغرافيا المحدودة والأماكن المحلية

العوامل الستة السابقة ساعدت كما ذكرنا على تطور علم الجغرافيا وعلى التعريف به عالميًا كعلم حيوي وضروري للبشرية والحياة. والعوامل الستة أيضًا ساعدت على زيادة حضور الجغرافيا في الثقافة العامة للمجتمع، وبالتالي ازداد ظهورها في المشهد الأدبي ونصوص الأدب المختلفة. ولعل ظهور (الرواية) كجنس أدبي هام وأساسي، تزامنًا مع عصر الثورة أو النهضة الجغرافية العالمية، أدى إلى تطبع ذلك الجنس الأدبي الوليد في مهده كثيرا، بالنفوذ الجغرافي الطاغي آنذاك. فنتيجة لذلك كانت الكثير من الكتابات الأولى في مجال الرواية، ذات نزعة جغرافية واضحة، ولعل المثال الأبرز على ذلك هو رواية روبنسون كروزو **Robinson Crusoe**، التي كانت جغرافية بامتياز، وكانت بحسب ترجيحات الكثيرين من النقاد ومؤرخي الأدب (أحد أوائل الروايات ظهورًا في تاريخ الأدب الإنجليزي).

هذه العوامل الستة زادت مقدار التركيز الجغرافي في محتوى الأدب، وزادت من مقدار المشاركات المتقدمة للجغرافيا في عملية بناء وتكوين النص الأدبي. ورسخت في النصوص الأدبية وأساليب كتابتها مفاهيم ثقافية جغرافية عديدة، ففضلًا عن العولمة الثقافية أو الانفتاح الثقافي هناك التعددية المكانية أو الإقليمية **Multiregionalism** ،والتعدد العرقي **Multi-ethnicism** وتعدد الجنسيات **Multinationalism** ، والتعددية الثقافية **Multiculturalism** .

هذه المفاهيم وغيرها جعلت من العمل الأدبي، إطارًا شاملًا للعديد من الأماكن والمناطق الجغرافية، والعديد من الشخصيات المتعددة الأعراق والجنسيات، والعديد من الثقافات التي تعكس الانتماءات الحضارية والانثروبولوجية المختلفة. بالفعل هذا هو الخليط الذي من شأنه أن يكسب أي عمل أدبي، تلك النكهة الجغرافية الرائعة.

الجغرافيا والنقد الأدبي

كما ذكرنا آنفًا أن العلاقة بين الجغرافيا والأدب هي علاقة قوية ووثيقة جدًا. نقول أن العلاقة بين الجغرافيا والنقد الأدبي هي على العكس من ذلك تمامًا، أي أنها علاقة هزيلة وضعيفة جدًا. وبالحديث هنا عن النقد الأدبي فإننا بالتأكيد نقصد كلًا من النقد الأدبي والنظرية الأدبية معًا. لأنه كما ذكرنا سابقًا، أن النظرية الأدبية ما هي إلا جزء من النقد الأدبي.

إنه لمن المؤسف حقًا، أن نقول بأن الجغرافيا كعلم أساسي وريادي، ومشارك رئيسي في صناعة وتكوين الأدب، لا يلقى الاهتمام الكافي من النقد الأدبي عمومًا، ومن النظرية الأدبية خصوصًا وعلى وجه التحديد.

أتعجب وبشدة من أن التطور الرهيب الذي طرأ على النظرية الأدبية في العقود القليلة الماضية، لم يلق بالًا للجغرافيا، ولم يهتم بها بالقدر الكافي. فلا أجد سبب أو عذر مقنع، يبرر تجاهل منظري النظريات الأدبية الحديثة، للدور الحيوي الذي تمارسه الجغرافيا في بناء وتكوين الأدب. والذي يفترض ألا تمارس الجغرافيا دورًا يقل عنه أهمية، سواء في النقد الأدبي أو النظرية الأدبية.

إنه لمن السهل واليسير جدًا على المرء أن يبحث عن مساهمات ومشاركات الجغرافيا في نصوص الأدب، لكنه من الصعب جدًا البحث في مناهج النقد الأدبي وفرضيات النظريات الأدبية عن مجرد وجود للجغرافيا. فالباحث عن وجود الجغرافيا ومساهماتها في النقد الأدبي والنظرية الأدبية، يبدو من وجهة نظري تمامًا كالباحث عن مخرز في كومة كبيرة من القش.

إذا ما تتبعنا مشاركات الجغرافيا ومساهماتها في النقد الأدبي والنظرية الأدبية، فإننا سنجدها سطحية وضحلة، إذ يمكن لنا الإشارة إليها رغم قلتها، على النحو التالي:

١) عنصر المكان Setting:

يعتبر عنصر المكان، أحد العناصر الرئيسية التي يتكون من خلالها النص الأدبي. وكما ذكرنا في مواضع سابقة، فإن عنصر المكان هو العنصر الذي تنفذ من خلاله مساهمات الجغرافيا إلى النص الأدبي. إذ يمكننا القول أن عنصر المكان هو بمثابة الحبل السري الذي يغذي جنين النص الأدبي بالمعلومات والمساهمات الجغرافية.

كما قلنا أن عنصر المكان هو أحد عناصر بناء وتكوين الأدب، نقول أيضًا أنه أحد عناصر نقد وتحليل وتقييم الأدب والأعمال الأدبية. لذلك اعتاد كثيرون من النقاد الأدبيين على استخدام عنصر المكان كأداة للنقد، في معرض قراءتهم وتحليلهم وتفسيرهم للنصوص الأدبية، وخصوصًا النثرية منها كالقصة والرواية.

٢) نظرية السفر أو الترحال Travel theory:

تعد أحد النظريات الأدبية الحديثة، لم تحقق شهرة وانتشار واسع بقدر ما حققت العديد من النظريات الأدبية الحديثة الأخرى. تقوم هذه النظرية بدراسة الأعمال والنصوص الأدبية التي تنتمي إلى أدب السفر أو أدب الرحلات. وتهتم هذه النظرية تحديدًا بدراسة وتحليل أحداث ونتائج عملية السفر أو الارتحال التي تقوم بها شخصيات العمل الأدبي، ومن كل النواحي، سواء من الناحية الثقافية، أو الجغرافية، أو الاجتماعية، أو الأنثروبولوجية، أو حتى الإيكولوجية، وغيرها.

لذلك يمكننا القول بأن نظرية السفر أو الترحال تهتم بالجغرافيا، لكنها لا تقدم رؤية شاملة متكاملة، تليق بالدور الريادي والأساسي الذي تمارسه الجغرافيا في بناء وتكوين الأدب.

٣) نظرية ما بعد الكولونيالية Postcolonial Theory:

نظرية ما بعد الكولونيالية أو ما بعد الاستعمار، هي أحد النظريات الأدبية الحديثة. ظهرت مع انتهاء الحقبة الكولونيالية، أي مع نيل دول العالم الثالث استقلالها وجلاء الاستعمار الأوروبي عنها، لكنها أول ما حققت شهرتها في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي. ولعل أبرز من نظر لهذه النظرية، هو المفكر والناقد الفلسطيني إدوارد سعيد **Edward Said**، وتحديدًا من خلال كتابه ذائع الصيت الاستشراق **Orientalism**.

نظرية ما بعد الكولونيالية تناقش حال دول العالم الثالث بعد جلاء الاستعمار الأوروبي عنها، وتهتم بدراسة مفاهيم وظواهر الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي لتلك الدول الحديثة الأسنان والمستقلة حديثًا. نظرية ما بعد الكولونيالية تثير النقاش حول مواضيع متعددة، مثل العلاقة بين الشرق والغرب، والتغريب، والاستشراق، والتبعية، والاستقلالية، والهوية، والامبريالية، والتعددية الثقافية، وغيرها.

الأدب ليس ببعيد عن الحال السياسي والاجتماعي والثقافي لتلك الدول، فالأدب كما تعلمون هو مرآة المجتمعات، لذلك سلطت نظرية ما بعد الكولونيالية جهودها على دراسة الأدب وظواهره في تلك الحقبة الهامة من تاريخ دول العالم الثالث. وفي ظل حديثنا عن دول، وكيانات سياسية، وثقافات مختلفة، فنحن نتحدث هنا عن غنى جغرافي، اتسم به الأدب ما بعد الكولونيالي، وبالتالي اتسمت به نظرية ما بعد الكولونيالية، التي بدورها تدرس الأدب ما بعد الكولونيالي، أو تدرس الأدب عمومًا وفقًا لمعايير ما بعد الكولونيالية.

٤) نظرية سوسيولوجيا الأدب Sociology of Literature:

نظرية سوسيولوجيا الأدب، هي نظرية تقوم على تحليل النص الأدبي من الناحية السوسيولوجية أو الاجتماعية. وفي حقيقة الأمر إن الجغرافيا تشارك وبشكل واضح، في عملية التحليل السوسيولوجي للنص الأدبي.

فبحسب الكثيرين من مؤرخي ونقاد الأدب، يعد الناقد والمؤرخ الفرنسي هيبوليت تين Hippolyte Taine هو أول منظر سوسيولوجي أدبي، يقحم الجغرافيا بشكل أساسي وواضح في عملية التحليل السوسيولوجي للنص الأدبي. وكان ذلك من خلال كتابه تاريخ الأدب الإنجليزي History of English Literature ، حيث ذكر فيه أن التحليل السوسيولوجي للنص الأدبي، يجب أن يتم بالرجوع إلى ثلاثة عوامل هامة، وهي: عرق الكاتب أو المؤلف، والوسط الجغرافي والاجتماعي الذي كتب فيه النص، والحقبة التاريخية التي كتب فيها[1].

(1) Abrams M. H : A Glossary of Literary Terms – Fourth Edition – Holt، Rinehart، and Winston – Texas 1993 – P 196.

obeikandl.com